زكي ناصيف رحل وبقيت أنشودته تزرع عالمنا رجاء ومـ

مازن عبود 2008\7\17 النهار

WhatsApp Facebook Twitter +Google



زكي ناصيف

قلّما وجدت مكانا حمّله ابناؤه حسرة وحنينا كمشغرة. ولكل ممن التقيت مشغرته التي يخشى ان يقارنها بالواقع الحالي
الخيال، على غرار "الالدورادو" في اساطير شعب المايا الذي انمحى. فكان ان نشأت غربة بينهم وبين المكان الذي يـ
اشكال الهرب، وهو هرب نتج اثر تداعيات حروب لبنان الصغيرة على الجماعات الدينية، التي كانت متموضعة ديمو

لا شك في انّ الحروب الاهلية التي رافقت دخول اسرائيل الى امكنة تعرف بـ "اطراف لبنان" في الثمانينات، كما "ط
ادت الى تعكير صفو العيش. فكان ان حصلت هجرة بعض الجماعات الدينية من ارضها. هجرة ادت الى تغير ديموغـ
الامكنة.

وكما يقول احدهم "انّ الارض هي لمن يحرثها لا لمن يدعي امتلاكها". قلة قليلة من مسيحيي مشغرة بقوا هناك، فعل
لأن ناسنا فقدوا الاقتناع والايمان، فاستحالوا وحدات انتاجية بشرية في اقتصادات دول غريبة.

الدرب الى مشغرة

اضحت الطريق الى مشغرة، سبيلي الى فهم امس كما يوم مدينة، هي انشودة من كلمات والحان زكي شاكر ناصيف، من قصص رياض شرارة، علقت في ذهني. مضيت الى مشغرة وكنت متحمسا لمعاينة قمرها الذي يجاور وادي التيم القرعون.

وفي طريقي الى قبلة زكي ناصيف، رحت افتكر في كل تلك القصص والموضوعات. فكان ان امتزج اريج الفنان، ال من العام 1916) من رشيدة، بطلّة رياض وكلمات توفيق ابرهيم الشاعرية، الذي كان اول من رسم لي مشغرة قطعا

لقد كان الصبي فيّ يعشق سماع ذاك الشاعر، الذي اقترن بإيفون نسيبة جدي. نعم لقد كان يتلهف كل عام لموعده مع الصيفية مع حلول موسم التين والعنب. اذ انه اعتاد ان يزور جديه ابان فرصه المدرسية، فيطلب جده منه ان يحضر والعنب من كرم جده في "عصولا".

عاودتني تلك الامور وانا في طريقي الى مشغرة، التي اوصاني "حبقوق" في آخر ايامه بزيارتها والقاء التحية على " يوما. نعم، اشياء محببة كانت تعاودني، وما كان يوقف سيلها الا نباح كلب صديقي، "المسجون" في صندوق سيارته بعدما قطعنا ضهر البيدر، وقد أطل البقاع المستقر ما بين سلسلتي جبال لبنان، كانه رداء ايليا الذي خلّفه لتلميذه اشعيا عربته النارية من جبل الكرمل او ايضا جبل الشيخ المستلقي غربا بوقاره وشموخه.

وانسبنا رويدا، الى البقاع الغربي، فعرّجنا على محمية عمّيق وقد رأيتها من السيارة مزيجاً من ماء وجلد وسماء. مكو الدلال فعله، فبانت لوحات رائعة للناظر.

مشغرة

ثم تصل مشغرة، واول ما تدركه قبور المسيحيين التي تستقبلك كي تقول "انّ ضالتك قد أضحت من الامس، فلا تفاج واستقبال القبور هذا جعل من زكي ناصيف يتلكأ في زيارتها، اذ انه اضحى في آخر ايامه يقول كلما سئل ان يذهب ا لاحق روح وضل هونيك. آه ما ابعد مشغرة، بحب اطلع لفوق، بس هالقبور لو بتزيح عن المدخل". حسب ما ابلغتني

ثم تطالعك رسوم لكوكبة من شهداء "حزب الله" المشغريين قبل ان تدرك العمار. رسوم تتخللها شعارات تؤكد انّ المـ لبنان الروحية، على ما درجت العادة في مثل تلك الامكنة.

ووصلنا أحد المنازل، وتزامن حلولنا مع اغنية "طلّو احبابنا، طلّو..." التي تسربت من اثير "اذاعة لبنان" الطالع من الضارب على الطريق الخالي، الا من الابواب المقفلة وبعض المعمّرين.

... حيث يستقر ويستريح

رغبت بداية في ان ازور ما كان زكي ناصيف يخشاه. وما كان يخشاه اضحى قبلة زيارتي، اذ انه يضم رفاته اليوم. الذي عطّر اثير بلدي. لم اعد اشعر بالاحراج ولا التردد بقول هذه الكلمات في حضرته، اذ انه ما عاد خجولا وبسيط

زرته، وزرت رياض شرارة. فأضأت شمعة على قبر من اضاء بلدي لحنا وطلّة وكلمات. فدندنت لحنه "مهما يتجر الذي مهما قلّ لا يبكي ولا يندب على الاطلال.

جئت القبر طالبا الحياة، اذ هالني انّ كثيرين ممن يحيون اليوم هم للموت، لانهم يزرعون عالمهم خوفا وتوترا وفسادا ممن استطونوا القبور هم الحياة. كيف لا ومازالوا يزرعون عالمنا فرحا ورجاء بموسيقاهم وكلماتهم وصدى اصواته الناس في كل مرة احبطت.

كان قبر زكي موحشاً ومهجوراً، كما مشغرته التي هجرها اهلها للريح والنسيان والشمس. فخلت الضيعة الفوقا الا مر الماضي كي يقولوا أننا ما زلنا هنا نقاوم موجات الهجرة والغبن وقلة الايمان. لقد توسّعت مدافن مشغرة على حساب خرير المياه. مياه جارية تروي قصص السلف من آل حجار وطرابلسي وابرهيم وشرارة والغزال والصائغ. كما ترو ابتاع له والده من محمد لحام (والد دريد لحام) اسطوانات وفنوغرافاً في بدايات العشرينات من القرن العشرين. ولم لا بالدلال. فوالد زكي كان تاجراً كبيراً التزم صناعة احذية الجيش الفرنسي في الشرق. فشغّل مدابغ بلدته. اسطوانات ج بلدته العالي. راح يدندن للزارع والحاصد، كما للهوى المكتوم في قلبه في ليل القمر ونجومه. وجعلته الموسيقى اكثر حبه للحياة الحاناً وكلمات. حاولت ان اكتشف اين هي "هلا" اليوم،وقد ارقصت زكي في الامس القريب، ف"سوسن ، وحلاها"، الا انها على ما يبدو قد كبرت وهجرت مشغرتها بعدما بارت الاراضي التي ما عادت تخضّر لمرورها.

طيفه ومنزل الطفولة

ثمّ انتقلت الى منزله، زمن الطفولة، الذي كان يخشى ناصيف الاقتراب منه عندما كبر. خشي الاقتراب منه، لانه أراد واخوته واحبابه. والبيت اليوم اضحى مشرّعا للنسيان يناغش عين مياه كانت عامرة، وساحة شكلت "مبسم عطر" ص

بأنغام اسطوانات عبد الوهاب وسلام حجازي التي كانت تعشش في سقفه تخرج وتملأ المكان كي تخفف من وحشته و
بعدما ادركت ان عتب "الحقالي" مع "شق الضؤ" يزداد حتى حدود الصمت، وقد استطونها الشوك. انحنت بعدما اثقل
لحنا وكلمات لليل والقمر. اثقلها غياب وقع انغامه المائية بانسيابها الموسيقي. لم لا، والمياه بحسب زكي ناصيف هي
البسيطة".

لقد جمعت أغاني زكي ناصيف روح بلده وعصارة ثقافة تلك المرحلة كما معارفها. فهو تلقن الموسيقى في الجامعة ا
منتصف الثلاثينات. فأضحت حياته تضج كلمات والحاناً، انتج منها المئات، ولم ينشر منها الا بضع عشرات، اغنت ا

الطفل الحكيم

بان علي هناك زكي ناصيف، الطفل الحكيم الذي اشتهر ببساطته واقتناعاته وايجابيته التي تخطت كل الحدود. الطفل
لبنان "راجع يتعمر". وقد كتب تلك الكلمات يوم انهارت عليه القذائف وهو في طريقه الى المنزل، فمنعته من الوصو

لقد كتب كلمات اغنيتيه الشهيرتين "راجع، راجع يتعمر لبنان" و"مهما يتجرح بلدنا" في تلك اللحظات، كي لا يلعن او
الذي عرف بكونه افضل نتاج مشغرة في ايام عزها، يوم كانت تحوي القصبة زهاء 300 مدبغة تعمل على تصنيع د

في زكي ناصيف واحزاب زمنه

ولا ينفك البعض يرى زكي ناصيف، ذاك الشاب الجامعي المتحمس الذي تأثر بأفكار زعيم الحزب السوري القومي ا
الاخير يعمل مدرّسا للفلسفة في الجامعة الاميركية في بيروت.

كان زمن نشأة زكي ناصيف، عصر الاحزاب عموما والاحزاب القومية خصوصاً. فكان الحزب السوري القومي الا
الكبرى)، وحزب البعث (القومية العربية)، وحزب الكتائب (القومية اللبنانية). احزاب استلهمت فلسفاتها من نظرية ال
اوروبا في ذلك الوقت، والتي ارتكزت على مبدأ تفوق العناصر والاعراق. انه تأثير اوروبا القديمة الناشطة سياسيا و
والناهدة الى العالم القديم.

اما الحزب السوري القومي، فكان ثمرة فكر اكاديمي في الجامعة الاميركية في بيروت (الكلية السورية الانجيلية) من
عرف بديناميته وثقافته و"كراسميته" ورغبته العارمة في التغيير. فكان ان سحر الزعيم عبقري مشغرة، فتحرر من ذ

الخالق بألحانه وموسيقاه! فعرف بتقبله ومحبته الجميع على اختلافاتهم ومن دون انحياز او تمييز...

ولا تنسى عائلة الموسيقار اليوم أيدي "المؤسسة اللبنانية للارسال" البيضاء على الراحل التي حمته من العوز. اذ انّ
زكي ناصيف هي من كرامة الوطن، وبالفعل كانت كذلك!

وداع ولقاء

خرجت من عالم الفنان، من مقبرته ومنزله ومشغرته، الا انّ دندنات اغنية انطونيو فرغاس لـ "امبريو ارجنتينا" التي العائلية والتي كان لها عنده دلالات خاصة، راحت تعاودني. اغنية فقد تسجيلها لفترة غير قليلة، الى حين بلغته من الو نسيبه ربيع. فكان ان ابكته. ابكته، لانها تصور كيف ان مصارع الثور انطونيو اعتقد أنه غلب الثور الذي عاد فأرداه تغيير في هذا المشرق. اما الثور فكان رمز الخرافة والتقليد الذي يلتهم كل بطل، مهما عظم شأنه. وقد التهم الكثير من

تركت مشغرة بعد قداس الاحد الذي آثرت ترتيله اكراما لناصيف ورغبة في لقياه في فسحة اللقاء تلك التي تتخطى الا مع ملائكة التسبيح "السيرافيم": "قدوس، قدوس رب الصباؤوت...". وبان لي ينشد "حنانك يا رب الاكوان اليك رفعت حتى خروج روحه في الحادي عشر من آذار من العام 2004. تلك الروح التي كانت انشودة سماوية في ارضنا. انش "زكي" الذي كان معلما من معالم هذا المشرق الانسانية والحضارية. رحل وقد زال قبله زمانا، المشرق الجميل لحسا

رحل زكي ناصيف بالجسد وبقيت موسيقاه التي هي مزيج من طنين النحل وخرير المياه المتفاعل مع الموسيقى الاسب
(من بتهوفن).

غادرت تلك الارض على أمل ان اكون دائماً للحياة والارض، على قدر ما اعطيت. غادرت ولن تغيب عن بالي اغني بصوته الملائكي. غادرت ولن تغيب عن بالي اشياء ابن شاكر ورشيدة ناصيف.